

امبراطورية الدجل

ابو راجس

حركة اشبه ما تكون بحركة الدييب... اصوات خافتة والكل يترجل من الحفلات التي تقلهم في كل صباح.. الخوف مسيطر على الجميع الواحد يراقب الاخر... حتى تحية الصباح تكون باشارات خفية بالايدي او برمشات العيون... خوفاً من زبانية الامبراطور المنتشرين هنا وهناك في اروقة ودهاليز الدائرة.. لا تعلم من هو قد يكون زميلك المجامل او ذاك البواب ذو الشوارب الكثة والعضلات المفتول.. ام انها تلك المتبرجة بالوان صارخة، او المحجبة بالزبي الاسود ذو الفتحات الطويلة والمندبل المرمي كيفما شاء على شعرها الاشقر المصبوغ بالاسود الداكن.. حيرة تنتاب كل موظف او موظفة محافظ على كرامته... خاصة تلك السيدات والآنسات اللواتي يخجلن من كل عيب مشين حتى ان احداهن يوماً اباحت لي لدى مراجعتي لشعبتها وانا في حالة نفسية يرثى لها لما ذقته من مرارة وارهاق صعوداً ونزولاً للتهميش على متن عريضتي التي اطلب فيها اضافة خدمات لي في تلك الدائرة في زمن غابر.. في زمن قبل الامبراطورية والامبراطور الفرعوني. قائلة ي(اسيدي اننا في عهد يجب ان تختتم الهوامش هذه كلها من قبل نائب الامبراطور والا فسوف نلحق بطلبك هذا عدة اوراق اخرى تكون مخصصة للهوامش وستبقى صاعداً نازلاً الدرج هذا لايام وايام دون ان يستجاب لطلبك وان اعترضت فستحرم نهائياً من الاجابة على طلبك واياك ان تتفوه بما قلته لك)، اجبتها وانا ملتفت يميناً ويساراً من ان يرانا احداً نتجاذب الحديث (كيف الوصول الى السيد سرمد نائب الامبراطور..!؟)

تطبت حاجبها بعصيبة صارخة بوجهي (انت يا المراجع لماذا لم تهتمش معاملتك من قبل السيد سعيد..؟) في حين كان احد زبانية الامبراطور داخلاً مع مراجع لتمشية معاملته الخاوية من اي هامش عليها... رجوتها بعد ان علمت سبب صراخها ارشادي الى السيد سعيد.. لكنها كانت في حركات انفعالية مصطنعة لأبعاد شبهة مجاملتها وقاراً لشعري

الابيض قائلة (اذهب وابحث عنه..؟) خرجت دائراً بين تلك الاروقة علني اقرأ اسم وكيل النائب المحترم مكتوباً على احدى اللوحات المعلقة على الحيطان. سائلاً هذا وذاك رغم معرفتي القراءة والكتابة جيداً ولازلت قوي البصر والبصيرة لكن السيد سعيد اختفى بلمح البصر من اورقة الدائرة تلك وكأن الاسم ذاك شبح من الاشباح لم اتكهن الرجوع الى السيدة تلك خوفاً عليها من أوئلك الزبانية.. لكنني لمحتها وهي تشير باصبعها في احدى المرات عندما كانت غرفتها خالية من المراجعين الى الجهة المقابلة لغرفتها التي سرعان ما قرعتها دون ان يأتيني الجواب داخلاً اياها لأنظر رجلاً قميئاً على كرسي من ريش النعام كما يقال غاطساً فيه بالكاد يرى رأسه من على المنضدة.. القيت عليه تحية الوقت دون ان يجيبني وهو منشغل بالنظر في سجل ما بين يديه طرقت المنضدة باصبعي لكنه لم يابه وكأن لا احد في غرفته رفعت صوتي طالباً منه ملاحظة طلبي.. نظر اليّ شزراً بوجه عبوس رأسماً علامة × على معاملتي رافعاً يده الصغيرة ان اخرج خارجاً دون ان يكلف نفسه عناء النظر الى ما مكتوب في طلبي.. دخلت الى غرفة السيدة الوقورة لأضع المعاملة امامها وعلامة × بالخط الاحمر المماجك تشع عليها.. انقلبت اساريرها حزناً وهي تلعن بصوت خافت قائلة (عمي.. عليك تقديم طلب جديد... لأن سيادة وكيل نائب الامبراطور رفض طلبك نهائياً وانصحك بعدم العودة الى هذه الاروقة قبل شهر من الآن.؟!)

(ولكن يا سيدتي معاملة تقاعدي متوقفة على هذا الطلب.. في يومها لم يك هنا معاملة سيئة كهذه!؟).. كنا نحترم الناس.. ونخدم صاحب الطلب وهذا كان سبب نقلنا الى جهة اعلى من دائرتكم هذه.. عفواً من امبراطورية دجلكم هذه مقدراً ومحترماً الموظفين الطيبين فيها..) لكنها طلبت مني الاسراع بالخروج من غرفتها والا عرضتها لمأساة حقيقية.؟! تلك كانت انبل سيدة في الامبراطورية.. انها السيدة زكية.. رميت جسدي الهزيل على احد المقاعد المنتشرة في الاروقة كبقية المراجعين الذين تكفهر وجوههم مأساةً كمأساتي لكن لا احداً ينسب بحرف واحد خوفاً من طرده من الاروقة.. ليُرمى في الشارع ويحرم عليه دخول تلك الدائرة مرة اخرى ..

لفت نظري الحيطان المصبوغة بالاصفر الباهت.. والغرف المغلقة الابواب حركات كأنك داخل مبنى أمني يحرم عليك رفع بصرك لتشاهد ما يجري امامك.. وبقيت مدة طويلة افكر في كيفية حصولي ما ابتغيت ودائرة التقاعد تصر على كتاب تأييد من امبراطورية

الدجل هذه. !؟

انتهى الدوام صوت كهذا سمعته وجرس يقرع... الموظفين والموظفات يسرون في نسق عسكري الكل يقفل باب غرفته.. حاولت البقاء لأجد نهاية دوام اليوم ذاك.. لأرى السيد سعيد ذاك القميئ يحتفى به بين اثنان مفتولي العضلات يسير الهونا والكل موسعة الطريق له...؟ من هو؟ وانا محدث نفسي ودرجة الوظيفة التي تقاعدت بها تساوي تقريباً درجة امبراطورهم...

رددت مع نفسي ولله في خلقه شؤون لتأتيني دفعة قوية من احدهم صارخاً بوجهي (ما الذي تفعله هنا؟!) دافعاً اياي بكل قوته لأنسحب بسرعة من امام موكب اخر لأحذب بضم معوج محاط بستة او سبعة زبانية يتطاير الشرر من عيونهم... اتخذت من احدي زوايا حديقة امبراطورية الدجل ملجأ لي لأشاهد امبراطورهم الذي لا يزيد طوله عن متر واحد وعدد لا يحصى من الزبانية والمتملقين محاطين به من كل الجهات وأحد الحرس يركض فاتحاً الباب له في حين كان السائق ينحني اجلالاً له وهو على بعد عشرات الامتار منه.. في مقدمة الموكب كان ذاك الشخص.. بل ذاك ساعي البريد في ايام كنت في هذه الدائرة قبل ان تصبح امبراطورية.. مرتدياً بدلة انيقة يتقدم الموكب مما ايقنته انه صاحب نفوذ قوي في هذه الامبراطورية لمحني الموما اليه مهرولاً تجاهي ليصافحني ويقتادني مسرعاً الى سيده وهو يردد في أذني ان انحني له احتراماً لكنني لم افعلها مقدماً اياي له قائلاً سيدي الامبراطور.. هذا هو السيد فلان بن فلان كان يوماً هنا موظفاً والان بدرجة كبير الخبراء في الوزارة الفلانية.. رمقني الامبراطور بنظرة ازدراء قائلاً (شكل كهذا يكون كبير خبراء وزارة... والله تلك الوزارة لأيلة الى الخراب.؟!) ضحكت من كل قلبي متأكداً من سطوة وغرور الامبراطور هذا.. وهو يضيف (ومع ذلك تعال غداً لننظر في طلبك مؤكداً على ساعي البريد السابق تحديد موعد لي وساعي البريد يكتب في دفتر ملاحظاته الواحدة من بعد ظهر غداً.. مناولاً اياي ورقة حمراء مكتوب بها الموعد ذاك وسار الموكب تاركاً اياي وكأنتي دابة ظلت طريقها بالنسبة لهم؟!)

من حسن حظي لازلت مواظباً في دائرتي لحين اكمال اوراق معاملتي التقاعدية.. في صباح اليوم التالي طلبت مقابلة وزيرى شارحاً له ما مر بي يوم امس وهو يستقبلني ببشاشته المعهودة.. ضاحكاً بل غارقاً في الضحك وانا ارتشف القهوة موقعاً على عدة

كتب لأناس لا عرفهم منهيأً معاملاتهم بكل رحابة صدر في حين كان وزير ي يقول (لقد اضحكنتني يا هذا.. وخيراً كان لك ان تزور امبراطورية الدجل، هبى نفسك اليوم الواحدة بعد الظهر لنحضر اجتماعاً في الوزارة المسؤولة عن تلك الامبراطورية؟.. ولكن يا سيدي الوزير في هذا الوقت لي موعد مع الامبراطورية؟.. لا يهم فسنجده هناك) قال الوزير مازحاً (وستشبع من مرأه؟!) امتثلت لأمر السيد الوزير مطيعاً الاوامر مهياً الاوراق التي تخص وزارتنا وهو يهتف لوزير الامبراطور معلناً له بانه سيقدم لسيادته اليوم مفاجأة يحلم بها...؟!

مازحته قائلاً (سيادة الوزير باسلوبك هذا ستلقنني درساً قاسياً عند دخولي تلك الامبراطورية وقد أضرب بالعصى..) ضحك عالياً وعلمت منه انه يخفي عني شيئاً لا اعلمه..؟ حاولت استدراجه بالكلام.. لكنه كان قوي الشكيمة كعهدي به لا يشي بسر اوكل اليه امره..؟! حاولت الخروج من مكتبه الا انه منعني قائلاً أنت كبير خبرائي ولا يحق لك الخروج من هذه الغرفة الا بأمر مني؟) لكن سويغات بقائي في هذه الدائرة اصبحت معدودة،؟ الا انه اجابني (ومع ذلك مضيفاً اليوم الغيت احدي الوزارات والحقت نصف دوائرها بوزارتنا وامر تقاعدك رفض من قبل مجلس الوزراء) ملوحاً بطلبي الاحالة على التقاعد لكنه لم يدع لي الفرصة لأقرأ ما قرره مجلس الوزراء على اصل ذلك الطلب والذي هو باقتراح من سيادة الوزير نفسه؟ وانهمكنا في دراسة بعض الوثائق الى ان اعلن مدير مكتب الوزير انه في تلك الساعة يتوجب علينا الذهاب الى الاجتماع المرتقب...

وصلنا مكان الاجتماع وسيادة وزير ي مقدماً اياي الى اولئك الوزراء والمدراء العامون والمستشارون بلفظة الامبراطور الجديد.. مما ضقت به صبراً وحنقاً عليه لكنه كان يبتسم دون ان اعلم السبب ملفتاً نظره لموكب الامبراطور الحقيقي الذي ترجل من عدة سيارات وجلاوزته تحيط به وسيادة وزير ي يعطي الاوامر العسكرية والاياعازات الملى بالسخرية (حرس تجمع:.. سلام خذ..) والامبراطور يبتسم بلا مبالاة والامر عاجبه .. وعند مشاهدته لي تعجب اشد العجب قائلاً: انت...؟؟) لكن وزير ي كان اسرع مني بالاجابة بسخريته المعهودة وهو يقول للرجال اقسام لك الامبراطور الجديد مما جعلني اعترض على اللفظة تلك متبرأً منها لكنه واصل سخريته تجاه الامبراطور ذاك.. تقاسم الوزراء المديرات والدوائر وكانت امبراطورية الدجل اولى المديرات التي الحقت بوزارتنا عندما ناولني امرها السيد

الوزير الذي كنت منزوياً في كرسي بجانبه في حين كان الامبراطور يملئ شروطه على الجميع.. لم احتل قائلاً لوزير (من هذا الذي يتناول حتى على الوزراء؟؟؟ انه!!!).. اذن سبق في دائرة مغلقة وليكن عزرائيل في عوننا عند التعامل معه.. وسكرتيرة الوزير تنصحي بالسكوت!!..

عندما رجعت الى البيت عصراً كنت منهك القوى خائراً على السرير دون ان اتناول حتى قدح ماء والاولاد والاحفاد منتشرين حول سريري عما ألم بي؟ اخبرتهم برفض تقاعدي.. مما زاد في حنقهم طالبين مني تركي العمل. حتى ان احدى الكنات صرخت قائلة (الا يكفي ما قدمته من خدمة.؟).

ودارت ايام عدة لم أر فيها السيد الوزير ولا هو طلبني واصبحت منشغلاً في امور عائلية ووظيفية تراكمت وطاقتي المحدودة اصبحت لا يمكنها اللحاق بها.. الى ان كان يوماً وانا منكب على قرار لجنة تحقيقية تشعبت القضايا منها وتباينت الاراء بشأنها فبعضها ظالماً وبعضها مظلوماً وكبار موظفي الوزارة يتناقشون في امرها.. واضبارة اوراقها الملئ على الطاولة امامنا يتصفحها الواحد تلو الاخر.. دخل علينا سيادة الوزير هاشاً باشاً وعلى مرأى الجميع قائلاً (سيدي الامبراطور الجديد) مما أثار اعصابي لكنه لم يأبه بل سلمني ظرفاً مختوماً من سكرتارية مجلس الوزراء لأفتحه واتأكد بنفسي من توكيل مهمة الامبراطورية واناظتها بي وسيادته يردد لا مجال لك على الاعتراض.. طلب مني الزملاء كبار موظفي الوزارة تنفيذ الامر وانهم سيساعدونني لأختار نائباً لي يكون متواجداً بصورة دائمية في تلك الامبراطورية.. لأنني مديرها اضافة الى اعماله الحقيقية في الوزارة.. واختير شخص لا بل اشخاص مشهود لهم بالنزاهة للعمل في تلك المديرية.. امبراطورية الدجل..

صباحاً كنت داخلاً مبنى الامبراطورية مشياً على الاقدام كأني مراجع عادي لها متخذاً دوري لدى الاستعلامات التي تفتش حتى احذية المراجعين قائلاً (لدي كتاب خاص من السيد الوزير للسيد الميجل الامبراطور..). مما سهلت مهمتي واقتدت مباشرة الى ساعي البريد السابق الذي اعلم سيده فوراً. وكان هناك امام الباب قابلاً فلاح في ملابس رثة ملامحه لم تكن غريبة لكنني لم استطع التعرف عليه وهو يمد يده سائلاً ان ينصف ابنه دون ان يجيبه احداً حتى انا؟!!

اقتدت الى غرفة الامبراطور وهو ينظر الي شزراً مردداً ان كنت اتيت بكتاب توصية من وزيرك لتمشية معاملة اضافة خدمتك مضيفاً سيد فايق قل لسرمد وسعيد بانهاها فوراً؟). لكنني قلت له (سيدي الامبراطور معاملتي رفضت ولكنني هنا لأمر اخر.. الرجاء استدعاء السيدة زكية لأمر هام..؟

صرخ بوجهي (من انت حتى تستدعي تلك السيدة المشاكسة؟ ..)

(عفواً انا كبير خبراء الوزارة ولي كل الحق في استدعائها للتحقيق معها..)

انفجرت اساريه لدى سماعه كلمة تحقيق في حين كان الموظفون المنسبون من الوزارة يتزايدون في مكتبه أما ساعي البريد السابق باستدعائها فوراً.. أتت مصفرة الوجه خجلة متلعثمة لا تقوى على الوقوف من شدة الخوف ولدى مشاهدتها لي ابتسمت بوجهها مما شجعها؟

مددت يدي لها بظرف مغلق قائلاً (افتحيه)؟؟ حاول الامبراطور سحبه من يدها لكنني منعتة مناوئاً له امر اعفاء وزبانيته جميعاً من ادارة الامبراطورية.. امرته بترك الغرفة حالاً وكذلك ساعي البريد قائلاً (سيدة زكية عليك من اللحظة هذه ادارة المكتبة وارسال هؤلاء كل الى وظيفته الجديدة والاعلان فوراً عن اجتماع لكافة المنتسبين..؟

زمجر وهرج ونطق كفراً لكنني كنت ضاحكاً والفلاح الواقف بالباب والطالب الوساطة يميظ اللثام عن وجهه ليتبينه السيد الوزير بشحمه ولحمه وييده عصا التبخر ملوحاً بها للامبراطور الدجال الذي عين كاتباً في استعلامات الباب الخارجي ونائبه سرمد كاتباً في احدى الزوايا المنسية اما سعيد القميئ فارسل الى الباب الخارجي حرساً للاستعلامات ..

حاولت جهدي لأشهر عديدة اصلاح الوضع وعادت الابتسامة من جديد الى وجوه العاملين.. الزبانية رؤساء الاقسام السابقين كانوا تحت امرة من اضطهدوا لذا كنت تجدهم طوال الوقت في وضع لا يحسدون عليه.. رفضت امر نقل اي مسيء سابقاً او حالته على التقاعد... تحول اسم الدائرة من امبراطورية الدجل الى امبراطورية الفرح.. المراجع كان يحترم.. ينفذ طلبه بكل رحابة صدر دون تأخير.. لا رشاي لا سرقات لا اكاذيب ولكن يا ترى وفي وضع مؤسسة كهذه تناوب على ادارتها امباطوران مستبدان ورؤساء اقسام سفلة همهم الكذب والنفاق لا بل السرقة والاحتيال لأربعة عشر عاماً... هل سأستطيع اجتثاث جذور الخيانة منها وهل سيتركوني اعمل وزملائي عند التغيير الوزاري الذي سيحصل قريباً؟ وهل ستبقى البسمة على شفاه المنتسبين؟ لأنه امر اشك به انا نفسي قبل غيري!؟